

لعماد الأصفهاني واحدٌ ممن تزدان بهم الأمم وتبنى بهم الدول ويصنع لأصحابه المجد الأثيل، فهو أحد الأئمة الكتاب والوزراء الناصحين والمجاهدين الصادقين، لزم نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وكان صنو القاضي الفاضل جهادًا وإنشاءً، وكان ما كتبه مرآة صادقة لأحوال الأمة في مواجهة الحروب الصليبية خاصة في عهد الدولتين النورية والصلاحية.

العماد الأصفهاني .. نسبه ومولده  
هو القاضي الإمام العلامة المفتي المنشيء البليغ الوزير عماد الدين أبو عبد الله محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الأصفهاني الكاتب، ويعرف بابن أخي العزيز. ولد بأصبهان [\*] في ثاني جمادى الآخرة سنة ٥١٩هـ / ١١٢٥م

العماد الأصفهاني .. رحلته العلمية  
قدم العماد الأصفهاني بغداد وهو ابن عشرين سنة أو نحوها فنزل بالنظامية، وبرع في الفقه على أبي منصور سعيد ابن الرزاز وأتقن العربية والخلاف، وساد في علم الترتيل، وصنف التصانيف واشتهر ذكره. وتفقّه العماد الأصفهاني وبرع في الفقه على أبي منصور سعيد ابن الرزاز، وأتقن الخلاف والنحو والأدب، وسمع من ابن الرزاز وأبي منصور بن خيرون وأبي الحسن علي بن عبد السلام والمبارك بن علي السمذي وأبي بكر بن الأشقر، وأبي القاسم علي ابن الصباغ وطائفة، وأجاز له أبو القاسم بن الحصين وأبو عبد الله الفراوي.

ورجع رحمه الله إلى إصبهان سنة ٥٤٣هـ / ١١٣٩م، وقد برع في العلوم، فسمع بها، وقرأ الخلاف على أبي المعالي الوركاني ومحمد بن عبد اللطيف الخجندي، ثم عاد إلى بغداد وتعلّم الكتابة والتصرف، وسمع من السلفي بالإسكندرية وغيره.

روى عنه ابن خليل والشهاب القوسي والخطير فتوح بن نوح الخويي والعز عبد العزيز بن عثمان الإربلي والشرف محمد بن إبراهيم بن علي الأنصاري والتاج القرطبي وآخرون، وبالإجازة أحمد بن أبي الخير وغيره.

قال ابن خلكان: "كان العماد فقيهاً شافعي المذهب، تفقّه بالمدرسة النظامية زماناً، وأتقن الخلاف وفنون الأدب، وله من الشعر والرسائل ما يغني عن الإطالة في شرحه"

بين العماد الأصفهاني ونور الدين  
ولما تخرج العماد ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد، فوله النظر بالبصرة ثم بواسط، ولم يزل ماشي الحال مدة حياته، فلما توفي تشتت شمل أتباعه والمنتسبين إليه ونال المكروه بعضهم، وأقام العماد مدة في عيش منك وجفن مسهد، ثم انتقل إلى مدينة دمشق، فوصلها في شعبان سنة ٥٦٢هـ، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين، وحاكمها ومتولي أمورها وتدبير دولتها القاضي كمال الدين أبو الفضل محمد ابن الشهرزوري فتعرف به، وكان القاضي ابن الشهرزوري يحضر مجالس العماد ويذكره بمسائل الخلاف في الفروع.

وعرفه الأمير الكبير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين رحمهما الله تعالى، وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريب فأحسن إليه وأكرمه وميزه عند الأعيان والأمثال، وعرفه السلطان صلاح الدين من جهة والده، ومدحه في ذلك الوقت بدمشق المحروسة.

ثم إن القاضي كمال الدين ابن الشهرزوري نوه بذكره عند السلطان نور الدين محمود، وعدد عليه فضائله وتقدمه في العلم والكتابة وأهله لكتابة الإنشاء. قال العماد: "فبقيت متحيراً في الدخول فيما ليس من شأني ولا وظيفتي، ولا تقدمت لي به دربة".

قال الموفق عبد اللطيف: حكى لي العماد، قال: "طلبني كمال الدين لنيابته في ديوان الإنشاء، فقلت: لا أعرف الكتابة، فقال: إنما أريد منك أن تثبت ما يجري فتخبرني به، فصرّت أرى الكتب تكتب إلى الأطراف، فقلت لنفسي: لو طلب مني أن أكتب مثل هذا ماذا كنت أصنع؟ فأخذت أحفظ الكتب وأحاكيها، وأروض نفسي فيها، فكتبت كتباً إلى بغداد، ولا أطلع عليها أحداً، فقال كمال الدين يوماً: ليتنا وجدنا من يكتب إلى بغداد ويربحنا، فقلت: أنا أكتب إن رضيت، فكتبت وعرضت عليه، فأعجبه فاستكتبني".

ولقد كانت مواد هذه الصناعة عديدة عنده، لكنه لم يكن قد مارسها فجين عنها في الابتداء، فلما باشرها هانت عليه، وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب؛ وكان ينشئ الرسائل باللغة الفارسية أيضاً، وحصل بينه وبين صلاح الدين الأيوبي في تلك المدة مودة أكيدة وامتزاج تام.

وعلت منزلة العماد الأصفهاني عند نور الدين محمود وصار صاحب سره، وكان ينشئ بالفارسية فنَّه نور الدين إلى دار السلام بغداد رسولاً في أيام المستنجد، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة العمادية في دمشق، وذلك في شهر رجب سنة ٥٦٧هـ، ثم رتبته في إشراف الديوان في سنة ٥٦٨هـ، ولم يزل مستقيماً الحال رخي البال، إلى أن توفي نور الدين وقام ولده الملك الصالح إسماعيل مقامه وكان صغيراً فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد فضايقوه وأخافوه فأهمل، فترك جميع ما هو فيه وسافر قاصداً بغداد فوصل إلى الموصل ومرض بها مرضاً شديداً.

بين العماد الأصفهاني وصلاح الدين  
ثم بلغ العماد خروج السلطان صلاح الدين من مصر لأخذ دمشق، فعاد إلى الشام وصلاح الدين محاصراً حلب في سنة ٥٧٠هـ، فمدحه، ولزم ركابه، فاستكتبه، وقرَّبه، فصار من جملة الصدور المعدودين والأمثال المشهورين، يضاهي الوزراء ويجري في مضمارهم. وكان القاضي الفاضل في أكثر أوقاته ينقطع عن خدمة السلطان ويتوفر على مصالح الديار المصرية، والعماد ملازم الباب بالشام وغيره وهو صاحب السر المكتوم.

ولصلاح الدين معه من الإغضاء والتجاوز والبسط وحسن الخلق ما يُتَعَجَّب من وقوع مثله من مثله

وهكذا استعاد العماد الأصفهاني مقامه القديم وصار كاتب سر صلاح الدين، واستكتبه صلاح الدين ووثق به وقرَّبه إليه وصار من خاصته، يصرف الأمور ويقسم الأموال التي سلمها إليه السلطان ويوقع على ما يوقع عليه دون مراجعة، ويقضي حاجات من يلجأ إليه من الناس ويزاحم الوزراء وأعيان الدولة، وإن لم يصل إلى نفس المكانة العالية التي كانت للفاضل في نفس صلاح الدين، وقد لزم العماد صلاح الدين بعد هذا أكثر من القاضي الفاضل الذي كان يتخلف عن السلطان كثيراً ويقوم في القاهرة ودمشق ليشغل بالأعمال السلطانية، وأنشأ في عهد صلاح الدين الرسائل والمناشير والتبشيرات الكثيرة ودخل مجالس المشورة.

وهكذا، لم يزل عند السلطان صلاح الدين في أعز جانب وأنعم نعمة، والدنيا تخدمه والأرزاق يتصرف فيها لسانه وقلمه، إلى أن توفي السلطان صلاح الدين وبارت سوق العلم والدين بوفاته

بين العماد الأصفهاني والقاضي الفاضل  
لما التقى العماد الأصفهاني بالقاضي الفاضل بجمص مدحه بقصيدة، فدخل الفاضل على صلاح الدين، وقال له: عَدَا تَأْتِيكَ تَرَا جَمِ الْأَعَا جَم، وَمَا يَحْلُهَا مَثَلُ الْعَمَادِ. فَقَالَ النَّاصِرُ لِلْفَاضِلِ: مَالِي عَنْكَ مَنَدُوحَةٌ، أَنْتَ كَاتِبِي وَوَزِيرِي، وَرَأَيْتُ عَلَى وَجْهِكَ الْبُرْكَهَ، فَإِذَا اسْتَكْتَبْتَ غَيْرَكَ تَحْدِثُ عَنْكَ النَّاسُ. فَقَالَ الْفَاضِلُ: هَذَا يَحِلُّ التَّرَا جَم، وَرُبَّمَا أَغْيَبَ أَنَا، فَإِذَا غَبْتُ قَامَ مَقَامِي، وَقَدْ عَرَفْتُ فَضْلَهُ وَخِدْمَتَهُ لِنُورِ الدِّينِ، فَاسْتَخْدِمَهُ

ومن هنا صار العماد الأصفهاني معاون القاضي الفاضل في كل الأمور، وينوب عنه في حال غيابه أثناء مباشرة الأعمال السلطانية، وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف، فمن ذلك ما يحكى عن العماد أنه لقي القاضي الفاضل يوماً وهو راكب على فرس، فقال له: سِرْ فَلَا كَبَا بِكَ الْفَرَسُ، فقال له الفاضل: دَامَ عَلَا الْعَمَادِ. وهذا مما يقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء.

واجتماعاً يوماً في موكب السلطان، وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد الفضاء، فتعجبا من ذلك، فأشدد العماد في الحال:

أَمَا الْغُبَارُ فَإِنَّهُ \*\*\* مِمَّا أَثَارَتْهُ السَّنَابِكُ  
وَالْجَوُّ مِنْهُ مَظْلَمٌ \*\*\* لَكِنْ أَنْارَ بِهِ السَّنَابِكُ  
يَا دَهْرَ لِي عَبْدَ الرَّحْمَى \*\*\* رَفَلْتَ أَخْشَى مَسْ نَابِكُ

وكان القاضي الفاضل قد حج من مصر في سنة ٥٧٤هـ وركب البحر في طريقه، فكتب إليه العماد: "طوبى للحجر والحجون من ذي الحجر والحجا، منيل الجدا ومنير الدحي، ولندي الكعبة من كعبة الندى، وللهدايا المشعرات من مشعر الهدى، وللمقام الكريم من مقام الكريم، ومن حاط فقار القفر للحطيم، ومتى رؤي هرم في

الحرم، وحاتم ماتح زمزم ومتى ركب البحر البحر، وسلك البر البر لقد عادي قس إلى عكاظه، ولقبلة يستقبلها قبله القبول والإقبال، والسلام"

كان العماد الأصفهاني رحمه الله عنده فترة عظيمة وجمود في النظر والكلام، فإذا أخذ القلم أتى بالنثر والنظم، حتى كان الناس يقولون في حقه: "مَنْطُوقُهُ يَعْثَرِيهِ جُمُودٌ وَفَنَرَةٌ".

وقد تصادف مرة أن العماد الأصفهاني حضر مجلساً في حضرة القاضي الفاضل، فلما انفصل العماد، قال الفاضل لمن معه: بِمَ تشبهون العِمَاد؟! فلما سمعوا سؤال الفاضل، فكلهم شبهه بشيء. فقال القاضي الفاضل: "مَا أَصْبَبْتُمْ، هُوَ كَالزَّنَادِ ظَاهِرُهُ بَارِدٌ وَبَاطِنُهُ فِيهِ نَارٌ"

العماد الأصفهاني في أواخر حياته  
لما مات السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ أفل نجم العماد فاختلفت أحواله وساءت أموره، ولم يعامله أولاد صلاح الدين معاملة أبيهم له وأقصوه عن مركزه، وفي ذلك يقول العماد في مقدمة البرق الشامي: "ولما نقله الله الكريم إلى جناب جناته واقتسم أولاده ممالكه، قلت: يسلكوا وينسكوا مناسكه، وأنهم يعرفون مقداري ويرفعون مناري ويشرحون صدري ولا يضعون قدرتي، فأخلف الظن، حتى قطعوا رسومي ومنعوا مرسومي وغوروا منابعي وكدروا مشارعي"

وبعد موت صلاح الدين لا يذكر المؤلفون الذين ترجموا للعماد شيئاً من أخباره، حيث لم يجد في وجهه باباً مفتوحاً، فلزم بيته وأقبل على الاشتغال بالتصانيف ويتضح ذلك من رسالة بعث له بها القاضي الفاضل من مصر سنة ٥٩٥هـ يشكو فيها حياة العزلة في مصر ويعد مقدرة العماد على الانكباب على الدرس والتأليف نعمة يتعين شكرها فيقول: "وأنا على ما يُعلم من العزلة، إِلَّا أَنَّهُ بِلَا سُكُونٍ، وَفِي الزَاوِيَةِ الْمَسْنُونَةِ لِأَهْلِ الْعَافِيَةِ، إِلَّا أَنِّي عَلَى مِثْلِ حَدِّ الْمُنُونِ، وَكَيْفَ يَعْشِ الْعَاقِلُ فِي الزَّمَانِ الْمَجْنُونِ، وَنَحْنُ عَلَى أَنْتِظَارِ الْبَرْقِ الشَّامِيِّ أَنْ يَمُطِرَ، وَحَاشَى ذِمَّةَ الْوَعْدِ بِهِ أَنْ تَحْفَرُ، وَاشْتَغَالَ سَيِّدُنَا فِي هَذَا الْوَقْتِ بِالْدَّرْسِ وَالتَّدْرِيسِ وَالتَّصْوِيرِ وَالتَّكْيِيفِ وَالتَّصَانِيفِ الَّتِي تَصْرَفُ فِيهَا الْبَلَاغَةُ أَحْسَنَ التَّصَارِيفِ نِعْمَةً عَيْنُ شُكْرِهَا عَلَى الْعُلَمَاءِ، وَيَخْتَصُّ بِالذِّبَةِ بِهَا سَادَتُهُمْ مِنَ الْفُقَهَاءِ"

ثناء العلماء عليه  
قال ابن النجار: "وَكَانَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمُتَقِنِينَ فَقْهًا وَخِلَافًا وَأَصُولًا وَنَحْوًا وَلُغَةً وَمَعْرِفَةً بِالتَّوَارِيخِ وَأَيَّامِ النَّاسِ ..، وَكَانَ مِنْ مَحَاسِنِ الزَّمَانِ لَمْ تَرَ الْعُيُونَ مِثْلَهُ"

وقال ابن قاضي شهبه: "وَكَانَ فَاضِلًا بَارِعًا فِي دَرَسِهِ يَتَزَاهَمُ الْفُضَّلَاءُ فِيهِ لِفَوَائِدِهِ وَفَرَائِدِهِ"

وقال الموفق عبد اللطيف: "ويوم يدرس تتسابق الفقهاء لسماع كلامه وحسن نكته، وكان بطيء الكتابة، ولكن دائم العمل، وله توسع في اللغة، ولا سعة عنده في النحو ..، وكان فريد عصره نظمًا ونثرًا".

قال ابن الزُّورِيّ في تاريخه: "الْعِمَادُ إِمَامُ الْبُلَغَاءِ، شَمْسُ الشُّعْرَاءِ، وَقُطْبُ رَحَى الْفُضَلَاءِ، أَشْرَقَتْ أَشَعُهُ فَضَائِلُهُ وَأَنَارَتْ، وَأَنجَذَتْ الرُّكْبَانُ بِأَخْبَارِهِ وَأَغَارَتْ، هُوَ فِي الْفَصَاحَةِ قُسْ دَهْرِهِ، وَفِي الْبَلَاغَةِ سَحْبَانُهُ عَصْرِهِ، فَاقَ الْأَنَامَ طَرًّا، نَظْمًا وَنَثْرًا، وَفِي رِسَائِلِهِ الْمَعَانِي الْأَبْكَارِ الْمُخْجَلَةِ الرِّيَاضِ عِنْدَ إِشْرَاقِ النُّوَارِ"

روايته للحديث  
ولسعة علمه واتساع فقهه كان العماد الأصفهاني من رواة الحديث، فقد روى الذهبي بسند العماد عن أَبِي الْقَاسِمِ الْبُغْوِيِّ، حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، أَخْبَرَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي ذُبْيَانَ -هُوَ خَلِيفَةُ بَنِ كَعْبٍ- قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: لَا تُلْبِسُوا نِسَاءَكُمْ الْحَرِيرَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ عُمَرَ يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "مَنْ لَبِسَهُ فِي الدُّنْيَا لَمْ يَلْبِسْهُ فِي الْآخِرَةِ"

ومما قاله العماد الأصفهاني من الشعر

وَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا صَحَائِفُ \*\*\* يورخ فيها ثم يمحي ويمحق  
وَلَمْ أَرْ فِي دَهْرِي كدائرة المني \*\*\* توسعها الأمل والعمر ضيق

وقال:

اقنع وَلَا تطمع فَإِن الْفَتَى \*\*\* كَمَاله فِي عزة النَّفْسِ  
وَأِنَّمَا ينقص بدر الدجى \*\*\* لأخذه الضَّوءُ من الشَّمْسِ

وقال يمدح الناصر صلاح الدين الأيوبي:

وَالنَّاسُ بِالْمَلِكِ النَّاصِرِ الصَّلَاحِ \*\*\* صَلَاحٌ وَنَصْرٌ كبير  
هُوَ الشَّمْسُ أَفْلَاكُهُ فِي الْبِلَادِ \*\*\* وَمَطْلَعُهُ سَرْجُهُ وَالسَّرِيرُ  
إِذَا مَا سَطَا أَوْ حَبَا واحتبى \*\*\* فَمَا اللَّيْثُ؟ مَنْ حَاتِمٌ؟ مَا تَبِيرُ؟

ومن بديع ما قال:

هِيَ كَتَبِي فَلَيْسَ تَصْلَحَ مِنْ \*\*\* بعدي لغير العَطَارِ والإسكافي  
هِيَ إِمَّا مزود للعقابي \*\*\* رَ إِمَّا بطائن للخفاف

ومن شعره يمدح المستنجد بالله:

وَمَا كل شعر مثل شعري فَيُكْم \*\*\* وَمَنْ دَا يقيس البازل العود بالنفض  
وَمَا عز حَتَّى هَان شعر ابن هَانِيء \*\*\* وللسنة الغراء عز على الرُّفُض

مؤلفات العماد الأصفهاني

لما توفي صلاح الدين ترك عماد الدين الأصفهاني الأعمال وتوفر على التدريس، وكان بارعا في درسه يتزاحم الفضلاء فيه لفوائده وفرائده، وجمع مصنفات كثيرة في التاريخ والأدب، منها:

- ١- خريدة القصر وجريدة العصر: ذبلا على (زينة الدهر) للحظيري، وهي ذيل على (دمية القصر وعصرة أهل العصر) للباخرزي، التي ذيل بها على (يتيمة الدهر) للشعالبي، التي هي ذيل على (البارع) لهارون بن علي النجم، فالخريدة مشتمل على شعراء زمانه، تقع مطبوعته في (٢١) مجلداً، ترجم فيه العماد لشعراء القرنين الخامس والسادس الهجريين، في الشام والعراق ومصر والجزيرة والمغرب وفارس.
- ٢- الفتح القسي في الفتح القدسي: وهو في حروب صلاح الدين وفتح بيت المقدس.
- ٣- البرق الشامي: وهو مجموع تاريخ، وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام، وما جرى له في خدمة السلطان نور الدين محمود، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين، وذكر شيئاً من الفتوحات بالشام، وهو من الكتب الممتعة، وإنما سماه " البرق الشامي " لأنه شبه أوقاته في تلك الأيام بالبرق الخاطف لطبيها وسرعة انقضائها.
- ٤- السيل على الذيل: جعله ذبلا على ذيل ابن السمعاني، الذي ذيل به "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادي،، قال ابن خلكان: " هكذا كنت قد سمعت ثم إني وقفت عليه فوجدته ذبلاً على كتابه خريدة القصر " وأقر بذلك ياقوت الحموي في معجم الأدباء.
- ٥- نصرة الفترة وعصرة الفطرة: في أخبار الدولة السلجوقية، اختصره الفتح بن علي البنداري في جزء سماه (زبدة النصرة ونخبة العصرة) ويعرف بـ (تواريخ آل سلجوق).
- ٦- نحلة الرحلة وحلية العطلة: ذكر فيها اختلال الأحوال وتغير الأمور بعد موت السلطان صلاح الدين، واختلاف أولاده وما وقع من الخلاف بين الأمراء والعمال.
- ٧- ديوان رسائل.
- ٨- ديوان شعر.
- ٩- له كتاب (البستان) في التاريخ.
- ١٠- عتب الزمان في عُقبى الحدثان (رسالة).
- ١١- خطفة البارق وعطفة الشارق (رسالة)

وفاة العماد الأصفهاني  
توفي العماد في الاثنين مستهل شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ / ١١٢١م، ودفن في مقابر الصوفية خارج باب النصر.  
فرحمه الله وأجزل مثوبته وجزاه عن الإسلام والعربية خيرًا